تولية محمد علي باشا الكبير

صفحة مصرية نبيلة

وضع الأستاذ المؤرخ القصصي الكبير محمد فريد أبو حديد قصة سينمائية عن قيام حكم محمد علي باشا الكبير سماها « ابنة الملوك » وعهد إلى الأديب يوسف تادرس الناقد المسرحي بكتابة « السيناريو » وفي هذه المناسبة السعيدة ننشر من مناظرها هذا المنظر الذي يصور كيف نصب الشعب المصري محمد علي باشا والياً عليه بحكم إرادته ومحض اختياره

المنظر : قاعة في قصر محمد علي باشا بالأزبكية . محمد علي باشا في ملابس الولاية واقف وأمامه أدهم أحد ضباط الأرنؤود .

أدهم : . . . وبعد قليل وصل السيد عمر مكرم والشيخ الشرقاوي فلقيا عناء كبيراً في اختراق الكتل البشرية المجتمعة في ساحة بيت القاضي والطرق المؤدية إليها فقد كان عددها يعدو الأربعين ألفاً .

محمد علي : (في دهشة) أربعون ألفاً ؟ !

أدهم : أجل يامولاي وقد بلغ بهم الحماس حداً لامثيل له . . . كانوا يضربون على الدفوف ويهتفون من أعماق قلوبهم : «عايزين الحاكم اللي ترضاه» «عايزين الباشا بتاعنا»

محمد علي : (يتبسم) وبعد !

أدهم : صعد السيد عمر مكرم والشيخ الشرقاوي والعلماء والأعيان إلى القاضي . . . حاولت الدخول فلم أستطع ولكني علمت أن كلمة الجميع قد اتفقت على خلع خورشيد باشا لأنه ظالم مستبد .

محمد علي : وهل انفض الاجتماع على هذه النتيجة ؟ !

أدهم : الاجتماع لم ينفض بعد . . . لقد غادرتهم مجتمعين وجئت مسرعاً لأتلقى تعليمات مولاي .

محمد علي : لابأس سيقفنا الشيخ عبد المنعم على مادار في الاجتماع . . . قل لي يا أدهم ماذا يقول الناس عني ؟

أدهم : إنهم في حيرة ياسيدي . . . يقول البعض إنك ستسافر في الأسبوع القادم إلى جدة لتقوم باعباء الولاية، ويقول آخرون إنك تخشى السفر ولن تبرح القاهرة

محمد علي : (يتبسم ويهز رأسه)

أدهم : مولاي ! أتسمح لي أن أسألك سؤالا ؟

محمد علي : سل يا أدهم .

أدهم : كيف قبلت منصباً كهذا ؟

محمد علي : لا يرفض المرء ترقية مهما كانت . . . لقد كان هذا المنصب وسيلة إلى الرتبة التي ساوتني بخورشيد . . . إنه اعتراف من الباب العالي بجدارتي لمنصب الولاية

أدهم : أتترك مصر إلى جدة ؟ ! تغادر هذه الجنة الزاهرة إلى تلك الصحراء القاحلة ! ؟

محمد علي : ومن قال لك إني راحل أيها النبي ؟

أدهم : مولاي . . . لقد أحس رجالك بحيلة خورشيد لاقصائك عن القاهرة فتوسلوا إليك أن ترفض السفر فأبيت . فهل لي أن أتساءل . . . ؟ !

محمد علي : (مقاطعاً باشارة من يده) لاتتساءل . . . لنترك كل شيء إلى الظروف . وما قدر فسوف يكون

(يدخل سرور ويؤدي التحية)

سرور : سليمان أغا وضابطان يطلبون الاذن على مولاي

محمد علي : (يتبسم) أدخلهم . وإذا جاء الشيخ عبد المنعم فأخبرني

ـ توا . (يخرج سرور) إذهب الآن يا أدهم وتسقط الأخبار في القلعة فلعلك تحمل إلينا شيئاً جديداً .

(يخرج أدهم — يدخل سليمان أغا وضابطان من الأرنؤود ويؤدون التحية)

محمد علي : خيراً .

سليمان أغا : جئنا يامولاي لنعرف ما ذا استقر عليه رأيك .

محمد علي : لقد أعلنتكم برأيي وإني مصر عليه .

سليمان : مولاي ! ولكن مصلحة جنودك ورجالك لايمكن إغفالها .

محمد علي : تطلبون إلي أن أخالف أوامر الباب العالى ؟ ! إنكم تطلبون المستحيل . . . لقد قبلت المنصب والرتبة فلا بد أن أرحل إلى جدة .

سليمان : وكيف تتركنا ؟ ! ومن يهتم بنا إذا تخليت عنا ؟ ..

محمد علي : إن خورشيد باشا صاحب الأمر في البلاد وتستطيعون أن . . .

ضابط(١) : نحن لانقبل أن يتحكم خورشيد فينا .

ضابط(٢) : ألا من سبيل لتحقيق أمنية رجالك يامولاي ؟ !

محمد علي : لاأظن ، فانها تتعارض وأوامر الباب العالى .

سليمان : يؤلمني ياسيدي أن أصرح بأن رجالك قد قر رأيهم على أن يحولوا بينك وبين السفر .

محمد علي : أجاد أنت فيما تقول ؟ !

سليمان : أجل ياسيدي ستمنعك بكل الوسائل .

محمد علي : كيف ؟

ضابط ٢ : سنلجأ إلى القوة إذا أدى الأمر إليها .

محمد علي : وإذا صممت أنا على السفر ؟

ضابط ١ : تعرض نفسك للخطر .

محمد علي : إن ذلك تهديد !

سليمان : سيدى . . . إن خورشيد هو الذى سعى لإبعادك ليتحكم فينا ويستبد بنا .

ضابط ٢ : إنه لا يريد بنا الشر فحسب ، بل بك أيضاً . . . إنك تدرك خديعته وتعرف أن فى سفرك الخطر كل الخطر ومع ذلك تصر على رأيك . . .

محمد علي : إذا تزات على رغبتكم كنت فى نظر السلطان ثائراً وحق لخورشيد باشا أن يلقى القبض على ويرسلنى إلى الأستانة .

سليمان : لن يستطيع هذا . . . إننا قوة كبيرة فى البلاد . . . ثق يا سيدي أنه لن يصل اليك إلا على أجسادنا

محمد علي : (يبتسم ويقول ساخراً) وإذا بدأت الحرب وقفتم فى وجهى بين يوم وآخر وجعلتم تطالبوننى بالرواتب أليس كذلك ؟ ! لا . لا . . . لن أقبل .

سليمان : مولاى . . . إننا لا نفكر الآن فى الرواتب ؛ نحن ننظر إلى كياننا ، إلى الخطر الذى يهددنا . . ستكون طوع أمرك فهل تعطينا كلمة ؟ . .

محمد علي : لا أستطيع أن أفكر فى الأمر إلا إذا وثقت من شيئين : ألا يطالبنى الجنود بالرواتب الآن ، وألا يوقفونى مواقف حرجة فيما بعد .

سليمان : لك ذلك ياسيدى . لن تكون الرواتب مصدر قلق لك

محمد علي : (ساخراً) أحق هذا ؟ !

ضابط ١ : أجل يا سيدي ولنقسم بين يديك

(يدخل سرور ويؤدى التحية)

سرور : مولاى . . . الشيخ عبد المنعم .

محمد علي : (لسرور) ادخله حالا (لسليمان أغا) لا أستطيع أن أعطى كلمة الآن . . . وسأرسل إليكم كلمتى فى المساء ؛ وعليكم أن تكونوا على استعداد .

سليمان : حسن يا سيدى

(يؤدى الثلاثة التحية ويخرجون)

(يدخل الشيخ عبد المنعم مسرعاً)

عبد المنعم : مولاي . . . إنهم في أثرى إلى هنا .

محمد علي : من ؟

عبد المنعم : السيد عمر مكرم والشيخ الشرقاوى والأعيان وأولاد البلد .

محمد علي : وما ذا حدث ؟ . . .

عبد المنعم : أوه ياسيدى . لقد كان يوماً عظيما . . . احتشدت الألوف . . .

محمد علي : (مقاطعاً) عفواً يا سى الشيخ أعرف كل هذا ،

أريد أن تقص على مادار فى الاجتماع . أريد النتيجة فحسب .

عبد المنعم : وقف السيد عمر مكرم والشيخ الشرقاوى ومن ورائهما العلماء والأعيان أمام منصة القاضى، وعرض السيد عمر مظالم الشعب فكان الجميع لساناً واحداً على خلعه

محمد على : وما السبب الذى بنى عليه قرار الخلع ؟ !

عبد المنعم : السبب أنه حاد عن سنن العدل وسار بالظلم فأصبح خارجاً على الشريعة .

محمد على : وبعد ؟

عبد المنعم : تحدث العلماء وأصحاب الرأي فى اختيار وال جديد واقترح السيد عمر مكرم اسم مولاى فقال الشيخ الشرقاوى : « إننا لا نستطيع أن نجد خيراً منه » وقال آخر : « إنه رجل ذكي محب للخير » وتبارى العلماء والتجار فى ذكر مناقب مولاى .

محمد على : ألم يعترض أحد ؟

عبد المنعم : لم يعترض أحد على شخصك يامولاي ولكن البعض رأى فى التعيين دون الرجوع إلى الباب العالى افتئاتاً على حقوقه

محمد على : وماذا قال السيد عمر ؟

عبد المنعم : ثار وصاح قائلا : « أي حقوق ؟ يجب أن يكون للشعب رأى فى اختيار حاكمه . . . كفانا مالقينا من حكامهم

محمد على : (يبتسم) يالله من رجل جرىء ! — فما الذى كان ؟

عبد المنعم : نزل الجميع عند رأيه فى النهاية وقرروا أن يجيئوا إلى هنا ليعرضوا عليك الولاية

(تسمع ضجة وجلبة صادرة من بعد تقترب شيئاً فشيئا)

عبد المنعم : أتسمع يا مولاى ؟ . . إنهم قادمون

(يسير محمد علي إلى نافذة ويطل من خلف الستر وينصت قليلا ثم يلتفت إلى الشيخ عبد المنعم)

محمد علي : اذهب الآن . . . لا أحب أن يراك أحد هنا وتستطيع أن تدخل معهم

عبد المنعم : حسناً ياسيدى . . (يخرج)

(يعود محمد على ليطل من خلف الستر . ترتفع أصوات الشعب ويسمع هتافات مختلفة وضرب بالدفوف)

(يدخل سرور ويؤدى التحية)

سرور : السيد عمر مكرم والعلماء ياسيدى

محمد على : أدخلهم ياسرور

(يخرج سرور وبعد لحظة يفتح الباب على مصراعيه ويدخل السيد عمر مكرم ثم الشيخ الشرقاوى وكثير من العلماء والأعيان)

السيد عمر : السلام عليكم ياسيدى

محمد على : عليكم السلام ورحمة الله . . .

(يتقدم محمد على ويصافح الجميع)

محمد على : تفضلوا . . . (يشير إليهم يده فيجلسون) خيراً ياسيد عمر ؟ لعل ما جئتم من أجله خير ؟

الشيخ الشرقاوي: إنه خير بإذن الله ياسيدى

السيد عمر : سيدى . . . لقد خلعنا خورشيد باشا من الولاية على البلاد واخترناك والياً علينا وجئنا نعرض الأمر عليك

محمد على : أيسمح لى صديق أن أوجه إليه سؤالاً ؟ !

السيد عمر : تفضل ياسيدى

محمد على : هل من سلطتكم أن تعزلوا الولاة وتقيموا غيرهم ؟

السيد عمر : أجل ياسيدى . . . « إن للشعوب طبقاً لما جرى به العرف قديماً ولما تقضى به أحكام الشريعة الاسلامية الحق فى أن يقيموا الولاة ولهم أن يعزلوهم إذا ما انحرفوا عن سنن العدل وساروا بالظلم لأن الحكام الظالمين خارجون على الشريعة . . »

الشرقاوى : ولقد انحرف خورشيد عن العدل وسار بالظلم ، لذلك أجمعنا على عزله واختيارك مكانه فإننا نتوسم فيك العدالة وحب الخير وبعد النظر

محمد على : ولكن خورشيد باشا لن يقبل القرار

السيد عمر : سواء علينا قبوله أو رفضه . . . فإن إرادة الشعب فوق إرادته

محمد على : وإذا رفض النزول من القلعة ؟

السيد عمر : نرغمه بالقوة

محمد على : وإذا لم يرض الباب العالى أن يسلم لكم بحق اختيار الحاكم

السيد عمر : لا يهمنا سلم أم لم يسلم . . . يجب أن يخضع لرأى الشعب ويختار الحاكم الذى ترضاه

محمد على : ولكن الأمر خطير ... فهل قدرتم مبلغ خطورته

السيد عمر : أجل يا سيدى ... الشعب يتمسك بحقه كاملاً ولن يقبل التفريط فيه وإن كلفه ذلك حياته

الشرقاوى : أجل . . . لن نقبل التفريط فى حقوقنا وفيما تفرضه الشريعة علينا

السيد عمر : البلاد مصرة على تنفيذ إرادتها ولو أدى الأمر إلى استعمال القوة

محمد على : أما من سبيل إلى الرجوع ؟ . .

السيد عمر : (مقاطعاً) عفواً يا سيدى . . . لقد جرب الشعب المصرى فى السنين الماضية أكثر ما يجربه شعب من المظالم والمتاعب وقد صحت عزيمته على ألا يرضى بحاكم (يشير بيده إلى محمد على باشا) إلا الذي اختاره

العلماء : أجل . أجل . لا نرضى إلا به

السيد عمر : هل تقبل يا سيدى ثقة هذا الشعب الذي أحبك واختارك دون غيرك والياً عليه ؟

محمد على : إننى عالم بما فى قبولى من خطورة ، عالم به تماماً ولكننى أمام إجماع الشعب ونزولاً على رغبة ممثلي الأمة الكريمة لا يسعنى إلا القبول

الشرقاوى : شكراً يا سيدي . . .

محمد على : وإننى أشعر بثقل الحمل الذى تريدون وضعه على عاتق

السيد عمر : نحن على يقين من أن الله سيعينك وأنت بلا شك عالم بما تمتلىء به قلوبنا من الآمال

محمد على : أسأل الله أن يوفقنى إلى تحقيقها بمؤازرتكم ومعونتكم

السيد عمر : سيطلع علينا عهد جديد باذن الله تبطل فيه المظالم وتقام فيه الشرائع والأحكام

محمد علي : لن يبرم أمر إلا بمشورتكم ومعونتكم إن شاء الله

(يتناول السيد عمر مكرم والشيخ الشرقاوى صرة من أحد العلماء ويخرجان منها ملابس تشريفه وهى عبارة عن جبة عليها كرك ويقفان ثم يتقدمان إلى محمد علي باشا الذي يقف فيلبسانه الجبة بين سرور العلماء)

السيد عمر : مولاى . . . لقد اختارك الشعب لأنه رأى الخير فى اختيارك ولن يرضى بديلا منك . نسأل الله تعالى أن يسدد خطاك ويديم الملك فيك وفى بيتك

العلماء : (يقفون ويرفعون أكفهم بالضراعة) آمين . . .

محمد علي : أشكرك ياصديقى وأشكر السادة العلماء وأصحاب الرأى فى البلاد . . . إننى سعيد بثقة هذه البلاد العزيزة وأسأل الله أن يعينني على خدمتها ورفع لوائها حتى تعيد مجدها الغابر وتصبح سيدة الأمم .

العلماء : (رافعين أكفهم بالضراعة) آمين .

(تسمع ضجة من الخارج عند باب القاعة ويرى حجاج الخضرى يحاول الدخول ولكن الجنود يمنعونه ويمسكون به وسرور ينهره)

سرور : لا . لن تدخل .

حجاج : دعني . . . أريد أن أكلم الباشا .

محمد على : دعوه . . . دعه ياسرور

(يترك الجنود حجاجاً فيتقدم خطوة نحو الباشا)

حجاج : مولاى ... الشعب يريد أن يرى الوالى الذى اختاره

السيد عمر : أجل يا سيدى ... يحسن أن تطل عليهم من الشرفة

(يسير محمد على إلى الشرفة ويفتحها ويخرج ليطل منها وإلى جانبه السيد عمر وخلفه الشرقاوى وعند ما يظهرون للجماهير ترتفع أصواتهم بالهتاف كالرعد)

أصوات : ينصر الله الوالى . ينصر الله مولانا السيد عمر . ينصر الله الباشا .

(ستار سريع)

اطلب مؤلفات
الأستاذ النشاشيبي
وكتابه
الإسلام الصحيح
من : مكتبة الوفد ، شارع الفلكى (باب اللوق)
ومن : المكتبات العربية الشهيرة